«تتأوه الإنسانية شبه المسحوقة تحت ثقل التطورات التي أحدثتها. إنها لا تعرف تماماً أن مستقبلها متعلق بها».
هنري بيرغسون (1859-1941م)، المصدرين للفضيلة والدين.
«لا أحد يعرف مستقبل الفجر القادم» مثل زنجي.

الفصل الأول

الرائي غداً

لماذا نبدأ بالمستقبل؟

جـرت العـادة على أن يبـدأ العمل الجـدي بتاريخ مختصـر للموضوع المعالـج، و يظهر أن له جذوراً في تربة الماضي الخصبة، وهكذا يكون لدينا انطبـاع ــ أو وهم ـ بوجـود استمرارية بـين الأدوات الحجريـة لأجدادنا القدماء والتقنية المتطورة التي يسيطر عليها أطفالنا بشكل أفضل منا.

ولكن التلفاز لا ينسجم مع هذا التمرين، ما تاريخه؟

إذا لم نضعـه ضمن تاريخ الاتصـال، ولم نعد به إلى النقوش الحجرية للعصـور السحيقة، فإنه لا وجود له، التلفـاز فتي جداً، بل فتي إلى أقصى الحـدود، لا يمكننا تصور مراهق ملأ وجهـه حب الشباب يكتب مذكراته. وليست علاقة الاختراعات التقنية التي صنعت التلفاز بالتاريخ هي أفضل حـالاً، لأننا هنا كذلك لا نعرف أين نبدأ؟ بالكهرباء؟ أم بمذياع أجدادنا؟ أم محلـل الصـورة لزوركين، والـذي يعتبر الآلة الأولى لتحويـل الإشارات الإلكترونية إلى صورة؟

في الواقـع إن تاريـخ التلفاز هو أقـل بكثير كماضٍ انقضـى منه، كسلسلة مـن مراحل مستقبلية غير معقولة تم إنجازها، وكان ذلك تارةً للخير وللشر تارةً أخرى منذ وهلة قصيرة بحساب الزمن، ولكنه سيدوم طويلاً دون شك، سواء كان هذا يجعلك تطير فرحاً أو يجعلك تغوص في الوجوم المطلق.

إن الصدمة المستقبلية لم تحدث حتى الآن

المستقبل سيخبرنا، المشكل أن التوقعات للاختصاصيين المشهورين كذبتها الوقائع، ونحن لا نعتبر أنفسنا اختصاصيين ولا مشهورين، ولذلك فإننا قد نسيء قراءة المستقبل، أو على الأقل لا نتفوق على من قام بهذا، فكتاب ألفين توفلر، «صدمة المستقبل»، يدعو للضحك اليوم لأن توقعاته تبدو ساذجة بعد مرور جيل صغير على كتابته، ما فات عالم الاجتماع الأمريكي الكبير هو قدرة المجتمع على تحقيق ما يعد به العلم، إن القطار المعلق ذا المحرك المستقيم والهاتف المصور الذي ينقل الصورة، والكرسي الرافع الشخصي ...... إلخ، كلها يمكن إنجازها من الناحية التقنية منذ وقت طويل، ومع ذلك ما زلنا نفضل القطار والهاتف والسيارة في الزحام، مازلنا نستعمل المَهَدّة في ورشات البناء؛ لأن السلوك والعرف الاجتماعي يتطور ببطء أشد من تطور العلم، باختصار الأمر ليس سهلاً، وللتنبؤ بالمستقبل يجب أن نعرف التطورات التقنية المستقبلية، إضافة إلى التنبؤ بالعادات والموضة والعوامل العديدة المنطقية وغير المنطقية التي تغير وجه العالم.

ماضي المستقبل

إذا كنا نجهل المستقبل فإننا نعرف الماضي، ولكن هذا الماضي نفسه كان مستقبلاً في السابق لا يعرفه أحد ثم أصبح جلياً تراه كل الأعين اليوم.

دون العودة إلى ماتوسالم، لننتقل إلى العام 1935م بالخيال، ولنحاول التعرف على رينيه بارتيليمي مهندس شركة العدادات في مون روج، ضمن قفص من الأسمنت المسلح المبطن استقبل الوزير جورج مانديل ليطلعه على شيء يشبه جهاز المذياع له نافذة تعادل مساحة بطاقة بريدية على أحد جوانبه.

وخلف الزجاج المحدب ظهرت صورة مقدمة البرنامج مهتزة ومتقطعة ولكنها متحركة كالصور المشاهدة على شاشة السينما، لا توجد آلة عرض ولا بكرات ولا مصابيح، كانت المرأة قريبة جداً بلحمها وعظمها تحت العين الكهربائية للكاميرا، هذا السياسي والضحية الأولى للإعجاب بالتلفاز زود برج إيفل بجهاز إرسال تجريبي من غير أن يكترث لذلك أحد، لم يكن أحد في ذلك الوقت يمكنه تنبؤ مستقبل شيء لم نكن ندري بوجوده، ولكنه رغم ذلك سيغزو كل بيت في فرنسا خلال بضعة عقود من الزمن.

ولم يكن بارتيليمي الأول في هذا الموضوع، ففي عام 1932م كان المدعو هنري دوفرانس يحصل على صور باستخدام أنبوب مهبطي، وقبل ذلك بمدة تخيل الروسي نيبكو اختراع قرص قادر على تحليل الصور، وهذا دون شك حدس عبقري في عام 1884م!!، وربما قبله الجهود المبذولة الضائعة للقس الفلورنسي جيوفاني كاسيللي، وجهازه الراسم للذبذبات «بانتيليغراف» الذي يرسم عن بعد في عام 1862م، والذي جسد مسبقاً الجهاز الذي بنى عليه إيطالي آخر سيلفيو بيرلسكوني إمبراطوريته الاقتصادية والسياسية بعد قرن من الزمان! اختراع عظيم يتوقع له مستقبل باهر؟ مجرد طرفة محكوم عليها بالكتمان هكذا، بدا تلفاز BBC عام 1939م ببرنامجه ذي الأربع وعشرين ساعة أسبوعياً، وعشرين ألفاً من مشتركيه، والذين أصبح عددهم مليونين بعد أربعة عشر عاماً، وهذا يعني ازدياداً قدره مئة ضعف.

الأمر الجديد الذي حدث هو التعاون بين مخترع عبقري وإمكانيات مالية لتحقيق هذا الاختراع، إن الشخص الذي اختير اختراعه كان فلاد يميز زوركين، وكانت الشركة RCA هي صاحبة الفكر الواسع بتوظيفه كباحث، كانت الشركة الأمريكية مقتنعة بمحلل الصورة «إيكونوسكوب»

الذي اخترعه العالم الروسي في العام 1934م، وكان أول جهاز معتمد كلياً على الإلكترونيات، بعكس الأجهزة السابقة التي كانت تعتمد على مبادئ كهرطيسية وربما ميكانيكية.

وكذلك هنا كان المال هو الأساس لتحقيق الحلم المستقبلي، فلولا أن شركة RCA لم توظف مبلغاً هائلاً بالنسبة لذلك الوقت يقدر بتسعة ملايين دولار على جهاز اخترعه شخص غريب الأطوار، لولا حدوث ذلك لما حصلنا على متعة كتابة هذا الكتاب، و لنجوتم من الإكراه على قراءته!.

في عام 1950م لم يكن يراهن على التلفاز الملون سوى شخص حالم، ورغم ذلك فقد أصبح متوفراً بعد عام من ذلك في الولايات المتحدة، ففي الستينات كان جاك دوبر دنكار يغني «عندي المحطتان والألوان، كم أنا سعيد!» ليعلن رفضه للجري اللاهث وراء التطور العاجز عن إعطاء معنى حقيقي لحياتنا.

هل كان بإمكانه أن يخمن أن المحطات التلفازية سيصبح عددها بعد زمن ليس بالطويل يقدر بالعشرات بل بالمئات، هذا عدا الصورة ذات الأبعاد، وتطورات أخرى لا تخطر على بالنا.

ولنقم بقفزة عبر التاريخ ولنتوقف عند العام 1980م. كيف تنتقل الصور المتلفزة؟ عن طريق موجات مصدرها صادات طوبوغرافية وتغيرات كهرطيسية للوسط المحيط، إن سكان الوديان السحيقة والأماكن النائية يعرفون تماماً أنهم لا يستطيعون التقاط إرسال جيد ترسله محطات أعدت للمراكز السكنية الكبيرة، من كان ليراهن بقروش في ذلك الوقت على إمكانية وصول الإرسال من السماء، غير عابئ بتوضع الهوائيات والمحطات المرسلة والمستقبلة؟ ورغم ذلك فاعتباراً من عام

1987م أصبحت كل القارة الأوربية مغطاة بالأقمار الصناعية، وبذلك بات الحصول على صور دقيقة لكل القارة ممكناً وبدون استثناء.

عندما حرر غوغليلمو ماركوني وسائل الاتصالات من عبودية الأسلاك في عام 1895م لم يخطر بباله في حال من الأحوال أننا بمرور أقل من مئة عام سنعود لاستخدام الكابلات بتصميم، وذلك لنتخلص من متاهات الأثير التي لا يمكن السيطرة عليها، وخاصة لا يمكن فرض ضرائب عليها. ومع التقدم الذي حصل في مجالات معقدة جداً كالألياف البصرية، فإنه بإمكاننا أن نمرر آلاف المعلومات خلال كبل كان غير قادر سابقاً على تمرير رسالة مورس واحدة من نوعية سيئة، مع زيادة العرض فيما يتعلق بالبرامج تظهر المشكلة الحادة في اختيارها، هل كان يخطر ببالنا أو نحلم قبل عشرين عاماً بتسجيل برنامج يبث بنفس الوقت الذي ترى فيه برنامجاً آخر يبث مباشرة؟ واليوم كلٌّ يستطيع استخدام جهاز الفيديو، وأن يبرمجه كما يريد ليحصل على مكتبة من الأفلام المفضلة.

حيث توجد المحطة التلفازية، لا توجد متعة.

في عام 1994م لم يكن عدد البيوت التي زودت بنظام الكابلات يزيد عن 1.4 مليون منزلاً مقابل 13.5 مليون في ألمانيا، وبدفع ضريبة تلفاز شهرية قدرها 145 فرنكاً مقابل خدمة الكبل، استطاعت هذه الأسر المحظوظة في فرنسا توسيع حقل التقليب اليومي بإضافة عشرين محطة إضافية.

وهكذا فإن بإمكان المشاهد الفرنسي سواء عن طريق الأثير أو الأقمار الصناعية أو الكبلات استقبال 118 محطة تلفازية مختلفة

(هل هي حقيقة مختلفة؟). إننا نعد الآن في فرنسا اثني عشرة محطة مختصة بموضوع محدد مقابل 78 محطة في الولايات المتحدة.

بلند، بول

المستقبل قد بدأ فعلاً

يجب أن نتطرق الآن لاحتمالات تطوير الرائي الممكنة، إن أول الحقائق التي يجب تقبلها هو أن الرائي سيكون حاضراً في القرن الحادي والعشرين، لقد تلمظنا كثيراً باختراعات عديدة يُتوقع لها مستقبل باهر، من الشاشات الحائطية في البيوت إلى الهاتف المتلفز الذي يسمح برؤية رأس الشخص الذي تحادثه على الجانب الآخر، ولكننا نسينا أن نطرح السؤال الأساس، هل سيكون الرائي موجوداً؟ إنه سؤال يبدو سخيفاً، ولكن عدد التقنيات التي طرحت جانباً كبير، من الطباعة بالتنضيد إلى الآلة البخارية، من منا لم يتمنَ التخلص يوماً من اختراع مزعج ولا يمكن السيطرة عليه؟ بخصوص الرائي والفيديو والحاسوب يجب علينا أن نتقبل فكرة أنها ستحتل مكاناً أوسع في حياتنا خلال السنوات المقبلة رغم أن أشكال هذا الاحتلال لا يستطيع أحد الآن تخيلها.

التطور الأول: الكم

يصعب الخطأ في الإجابة على هذا السؤال، إن التعميم من التجربة السابقة، وجرد الثقافات الجديدة المتوفرة تسمح بتأكيد حقيقة أن العرض الكمي من البرامج سيزداد حتماً.

مـا زلنا نتذكر الثورة التـي أحدثها ظهور «المحطـة الثانية» في فرنسا. ثم بدا ظهور المحطة الثالثة طبيعياً تماماً، بينما لم يستدعِ ظهور المحطات التجاريـة سوى بعض التصريحـات السياسية غير التقنيـة للترحيب بها. إننـا نعتبر الآن طبيعياً تقليب المحطات الذي ينقلنا عبر المحيطات من بلد لآخـر، ومن الإيطالية إلى الإنكليزية مروراً بلغات أخرى التعرف عليها أكثر صعوبة مع جيل الأطبـاق الهوائية وخاصة الكابلات، فالمشكلة لن تكون في العثـور على برنامج يعجـب بمساعدة أو بدون مسـاعـدة مجلة مخصصة لذلك، وإنما أن لا نضيع في متاهة البث التي تشمل مئات المحطات.

إن تطور الأمور يسـير نحو البحث عن موضوع محدد: فنحن لن نختار بعد الآن المحطة، وإنما عنوان ما نريد كالرياضة أو الموسيقى الكلاسيكية، أو السينمـا الفرنسيـة قبـل الحـرب العالميـة أو المنوعات، إنهـم يتنبؤون باختراع أجهزة تتعلم على معرفتك، وتعرف أنك لا تشاهد مباريات القدم أبداً، ولكنك تشاهد الأوبرا، وتوجهك إلى المحطات التي يمكنها أن ترضي ذوقك، إن برنامج الأخ الأكبر «Big Brother» ليس بعيداً عنا.

الثمن الغالي

الاستثمـار: إن نفقـات تطويـر التطبيقـات متعـددة المصـادر التلفازيـة سيزداد من 650 مليونـاً إلى 5 مليارات مارك بين العامين 1991م و2000م في البلـدان الأوربية الأربعة الكبرى (ألمانيا، فرنسا، بريطانيـا، إيطاليـا). وفي سويسرا يقدر الإنفاق علـى هذا الموضوع بمليار فرنك سويسري.

الرائي والتعليم: في الولايات المتحدة إن الثقافة التعليمية المنشورة عن طريق الشبكات عديدة القنوات تصل كلفتها إلى 400 مليار دولار بنهاية العقد الأخير من القرن الماضي، وتقدر قيمة هذا السوق في ألمانيا بمئة مليار مارك.

الرائي الطبي: إن الصور الشعاعية المنمنمة و المتداولة عبر الشبكات بين المنشآت الطبية سوف توفر في الولايات المتحدة 140 مليار دولار في السنة (إلغاء الأفلام وتحميضها إلخ ...)، ولكن يجب استثمار عدة مئات من المليارات للتزود بالتجهيزات الجديدة اللازمة لذلك.

معارك العمالقة: إن زواج تقنيات الهاتف والرائي و المعلوماتية يتطلب مناورات إستراتيجية كبيرة من قبل أكبر الشركات العالمية في هذا المجال، ففي العام 1989م ولدت المجموعة تايم ـ ورنر التي تعتبر المجموعة الثانية لكابلات الرائي في الولايات المتحدة من اندماج عملاقي النشر والسينما، و منذ ذلك الوقت ازداد احتدام المعركة على شكل إعادة شراء واندماج و اتفاقات لتجميع الكفاءات واحتلال الأمكنة الأولى في السوق المستقبلية، التعاون بين بل أتلانتيك تلفون وتيليه كومونيكاسيون العملاق في مجال الكابلات التلفازية (33 مليار دولار خلال 5 سنوات). إعادة شراء باراماونت للاتصالات المنتجة للأفلام من قبل فياكوم المالكة للشركة MTV(8.2 مليار دولار)؛ التحالف بين الاتصالات البريطانية وشركة الاتصالات قصيرة الموجة المُرتَبة بالدرجة الثانية في مجال الاتصالات الهاتفية بعيدة المدى (4.3 مليار دولار).... هذه العمليات كانت أمريكية خاصة،

وهـذا يعني أن مستقبل الاتصالات في العـالم سيكون متأثراً إلى حد كبير بالثقافة الأمريكية (Yankee).

مجلة المعلم رقم 13، 1994م

إن زيـادة الطلب يمكن لها أن تأخذ اتجاهـاً آخر: يمكن لجهاز الرائي وبحسـب مبـدأ مشابه للمينيتيـل الحـالي أن يصبح من وقـت لآخر بنكاً للمعلومـات، ومركـزاً للتوجيـه، ولتبـادل الرسائـل الغرامية سـواء رُبط بالحاسوب أو لم يربط.

ولا يهم هنا الشكل الذي ستبدو به هذه الإنجازات الجديدة وإنما تغير السلوك الـذي ستؤدي له، يبدو أن حقبة البرامج المعنونة بحرف E الكبير وهو بداية كلمة طفل بالفرنسية، والتي تختار بعناية وتراقب بدقة ستنتهي قريباً، ويجب أن لا ننسى أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة عندما نحلل الآثـار والأذى الذي يلحقه الرائي بالأطفال، لأن استنتاجاتنا سوف تعتمد علـى الشكل الحالي لوسائل إعلام هـي في أوج تطورها، إن الحصول على الصورة سيكون سهلاً للغاية ومحرراً من قيود التوقيت، وسنقول سقى الله أيام برامج الأطفال الثابتـة الموعد التي تتيح للآباء أن يتحكموا بمشاهدة أطفالهم للرائي، وفرض الشـروط المعتادة لهذه المشاهدة: أداء الواجبات المدرسيـة و ترتيب الغرفة و إخراج الكلب لقضاء حاجته.... إلخ، إن هدف الكتاب المعلن هو السيطرة على الشاشة الصغيرة، ولذلك يجب ألا تدغدغ الأحـلام عقولنا، فـإذا لم تمارس رقابة شُرطيـة (بوليسية) على أطفالنا ليلاً ونهاراً فإن أبناءنا وأحفادنا سيشاهدون الرائي، علناً أو بالخفاء تحت أنظارنا أو في مكان آخر و أكثر من أي وقت مضى.

إن السبيل الوحيد الفاعل لحل هذه المشكلة هو تثقيف الأطفال حول الرائي، وهذا ما سنؤجله للفصل الأخير.

التطور الثاني: التفاعل

إن اللحن الحزين الذي غنيناه كلنا يوماً حول السلبية التي تولدها الشاشة الصغيرة سيكون قريباً جزءاً من الماضي. (وهذا لا يعني أن الأمور سائرة إلى الأفضل).

فباستطاعتنا دون الوقوع في الهذيان أو الخيال أن نتوقع تطور الأمور باتجاه مشاركة أكبر وتفاعل من طرف المشاهد، فتوجد أمثلة لتجارب في طورها الجنيني الآن، مثل المسلسلات التي تستطيع اختيار نهايتها، ولكن الأمر الأهم ليس هنا، سوف نكون قريباً بوضع يشابه وضع القارئ الذي يمر من كشك يبيع عنواناً أو عنوانين فقط إلى مكتبة غنية يمكنه فيها أن يقرأ بحرية حسب مزاجه، أو أن يلجأ لفهرس المحتويات ليجد كتاباً معيناً، فبدلاً من السؤال: «ماذا يوجد على القناة الثالثة هذا المساء؟ سيحل السؤال أين يوجد فلم رعاة بقر جيد؟». هل هذا الأمر سهل؟ بالتأكيد لا. إن موقف مستهلك الصورة يتغير تماماً للأفضل، إن الوقت باكر جداً لنقول هذا.

مثال آخر لتفاعل ممكن: بينما تشاهد مباراة لكرة القدم، تتساءل أحياناً إذا حصلت مخالفة في الموقف؟ (أوفسايد) وعندها تنتظر العرض البطيء للمشهد الذي يسمح لك بإعادة رؤيته إذا انتبه المخرج لحدوث هذه المسألة أثناء المباراة، قريباً سيكون بإمكانك مثلاً أن تختار بنفسك زاوية الرؤية، وتعيد رؤية المشهد المرات التي تريد إلخ..... وسيردون علينا بأن هذا الموضوع سيكون متعلقاً دائماً بلعبة القدم وحدودها بالتأكيد.

وهكـذا ستتعلمـون كيف تشاهدون، وتطالبون بفهم مـا تشاهدون، هذا ما يؤكدوه لنا، ويعتبره البعض ثورة حقيقة في عالم الأفكار.

مثـال أخـير بسيط وعملـي: مراقبـة الطفـل الرضيع أثنـاء مشاهدة البرنامج المفضل، كاميرا داخلية في غرفة الطفل موصولة بالرائي، ونافذة صغيرة في زاوية الشاشة تقتطع من الصورة الكاملة يمكن الحصول عليها بجهـاز التحكم عن بعد: وهكذا سيكون بإمكانك الاختيار بين دموع البطلة ودموع الطفل الصغير وما تبقى هو أن نعرف، مِمَّ سيكون تحررنا؟

وعلـى كل الأحوال فإن سلوك المشاهد بكامله سيطور باتجاه استقلالية أكـبر وخيارات وحرية أكبر، ولكن على الطرف الآخر مزيداً من السيطرة والتلاعـب والتدخل في الحياة الخاصة، وهـذا الأمر له شواهد من حياتنا اليومية نراها في تقنيات الاتصال واستطلاعات الرأي والشراء بالمراسلة، والتـي تسمح للمتنفذيـن من أصحـاب السلطة السياسيـة أو الاقتصادية بتجميع المعلومات حول كل منا ليؤثروا علينا بالاتجاه المطلوب.

المستقبل ليس في الأداة

حتى إذا استمر اختراع طرق عبقرية لتحسين (أو لإساءة) التعايش مع الشاشـة، ورغم العديد مـن التحسينات الممكنة بـل والضرورية للحصول علـى نوعية مترقية من الصور، فإن الثورة القادمة ستطال شيئاً آخر، بلا شك الوضوح الكبير بزيادة عدد الخطوط، وزيادة أبعاد الشاشة، والصورة ذات الأبعـاد، والصـوت المتناغم مع الصورة... إلـخ، تفتح مجالات شيقة في مجـالي الثقافة والتعليـم، فلوحة لواحد من كبـار الرسامين على 919

خط تجعل الإنسان يشتهي المشاهدة، وصوت سوبرانو بالإمكانيات الحالية يعطي نتفة صغيرة من غنى الأوبرا، وفيلم أمريكي 70 ملم على شاشة شبه مربعة ذات قطر مائل يصل بالكاد إلى نصف متر يرضي فضول شخص محب للسينما، إن بن هور مثل بافاروتي سيستفيدون دون أدنى شك من التطورات المذكورة ومن أخرى لا تخطر لنا الآن على بال.

إن الانقلاب الذي نشهد حدوثه بأم أعيننا يحدث في مجال مختلف تماماً، وهو حيز السلطة، وهنا نغادر مجال التقنية المطمئن لنخوض في مجال زاخر بالحركة متعلق بعلمي الاجتماع والنفس، وهنا نخرج من المختبر والمعمل لندخل عالم السياسة واللوبيات والتلاعب بالأخبار المتلبد بالغيوم، وإذا كنا لم نصل بعد لمرحلة دق ناقوس الخطر، فإن أشد درجات الحذر مطلوبة، والأمثلة التاريخية تؤكد إلى أي درجة استطاع مُلاك وسائل الاتصال الحديثة أن يسيطروا سيطرة تامة على معاصريهم. ويخطر ببالنا الرايخ الثالث، والسيطرة على المذياع من قبل هتلر وكوبلز، والحدث الأقرب إلينا هو حرب الخليج أو المقبرة الجماعية في جبال تيميسورا في أفغانستان.

وهكذا فالتطور الحادث في أدوات الاتصال سيزيد إلى حد استثنائي قوة أولئك الذين يسيطرون على نظام الاتصالات.

المحطات الجديدة

وسائل الإعلام المتعددة (Multim dia) خلف هذا المصطلح الجديد المريح بمصدره اللاتيني تكمن الآلة الأكثر سحراً للاتصال في كل العصور. وتعتمد على اختراعين تقنيين عاديين إذا أُخذ كلٌ على حدة:

- التعـداد المزدوج: وهو تركيز بسيط للغاية مكون من إشارتين نعم أو لا. والأصـوات والصور تخزن بنفس الطريقـة، وتنقل وحدات التعداد المزدوج «bits» كل معرفة الإنسانية المتراكمة منذ ولادتها.
- الأليـاف البصرية: وهي ألياف دقيقة تسمـح بمرور الضوء وليس التيـار الكهربائي، وهـي تسمح بنقل مباشـر وكمية غير محدودة من المعلومات.

والباقي ليس إلا تطبيق لإجراءات تسمح بتصغير أحجام أجهزة التشفير وإزالـة التشفير من جهة، وانتقال المعلومـة في الاتجاهين من جهة أخرى. وهـذا يعني التصغير والتبـادل. بوضوح إننا نملك الآن لغـة عالمية وقدرة علـى البث غير محدودة بآن واحـد، إننا نتكلم عن طريـق واسعة متعددة الاتجاهـات معبدة لنقل المعلومة، تشمـل الهاتف القديم للجد غراهام بل، وبنفـس الوقت دعـم الحاسوب المنزلي الـذي يصـل كل المستخدمين بين بعضهـم، ويصلهم بكل بنوك المعلومـات، والسوق الكبير للمعرفة والتسلية أصبح متوفراً للجميع، وعملياً فأنتم تسألوننا: ماذا يحدث؟

بكل بساطة الآتي: عندما تضغطون على رمز (icon) من رموز حاسوبكم المنزلي، فإنه سوف يبحـث ليس فقط في ذاكرته المحدودة بطبيعة الحال، وإنمـا في المعين الـذي لا ينضب للشبـكات المعلوماتية، عـن طريق الأقمار الصناعيـة و الكبلات التي تتيح الوصـول إلى المكتبات الجامعية وأرشيف المجـلات والجرائد لكل البلدان، والنسخ الأندر لأفلام كانت طي النسيان، وكذلـك بيانـات البيع عن بعد، والمحـلات التي تحرضـ الشهية الجنسية تجارياً، ولعب الفيديو التي لم تزدد ذكاءً رغم كل هذا التطور.

إننـا نقترب من السؤال الذي لم يجرؤ أحـد على طرحه حقيقة، بماذا سنستخـدم هذه الروائع؟ وخاصة في أي مجتمعات، ولأي هدف؟ إننا نعود بإصـرار لطرح هـذه المشكلة، ولكـن دعونا ننهي الجولـة الميدانية التقنية للأيام المقبلة التي يعدوننا بأنها ستكون مشرقة.

السرعة

إن سرعـة الحصول علـى الصـورة وحريتها ستزيد كمـا حصل فيما سمحـت به أدوات كجهـاز التحكم عن بعد وبعض وظائـف جهاز الفيديو، سيكـون المشاهـد أكثر اختيـاراً في مشاهدته، وسوف يلغـي دون رحمة كل المواضيع التي تبعث ملله، وذلك لصالح الأمور التي يفضلها، وهذا سيخلق تناقضـاً سنتعرض له بالشرح لاحقاً وكلمـا زادت احتمالات الانفتاح كلما زاد خطر انغلاقنا على الحيز الذي نعرفه.

الإمكانية

إن إمكانيـات التخزين ستستمر بالزيادة مع الوقت، فالانتقال الحديث العهد من الفلم التصويري السينمائي إلى شريط الفيديو يوحي بالخطوات العملاقـة المستقبليـة في هذا المجـال، لا أحد يعـرف الآن أي اختراع وأي أسلوب سيسيطر في المعركة الجارية على ساحة المسموع المرئي.

إن مـن المحتمـل أن يتغلب القرص المدمـج (CD) على شريط الفيديو التقليـدي مؤكداً انتصـار وحدات التعـداد المزدوج ببساطتهـا على طرق التخزين الأخرى التي لن تختفي تماماً دون شك (نرى مثال هذا باستمرار سـوق الأسطوانـات السماعيـة القديمة التـي تبقى المفضلـة عند المولعين

بالموسيقى المُتَطَلِبِين والذين يحنون للماضي)، ولكنها سوف تنحصر في مجالات خاصة.

العلاقة الحميمة

الصلة بين المستخدمين الموصوفة من قبل البعض بالساحة العامة ملتقى العشاق المستقبلية، أو ساحة القرية الإلكترونية حيث نتبادل آخر الأقاويل عن طريق فأرة الحاسوب ولوحة أزراره، ستتطور دون شك على الطريقة المشاهدة في أنظمة الهاتف و تبادل الرسائل الإباحية، والإنسان يتساءل إن كانت هذه الوسائل تحقق الصلة فعلاً، فنحن لدينا شكوك حول حقيقة هذه الصلة، ويجب ألا نخلط بين الأشياء الحقيقية وما يشابهها ظاهراً فقط، ولكن الخوض في هذا الموضوع هو عبارة عن مجال آخر للنقاش.

من الأمور الواعدة تبدو إمكانيات استغلال عمل الصحفي على سبيل المثال، فقد يتلخص عمل أيام بل وأشهر أحياناً بعدة سطور وصورة أو صورتين من نوعية سيئة في إحدى الجرائد اليومية، ومع الإمكانيات التي يتيحها القرص المدمج والذاكرة الإضافية للحاسوب، يمكن للمادة الإخبارية أن تصنف بدقة، وأن تستخدم من قبل عدد غير محدود من المستخدمين في كل زمان ومكان، وهكذا تنبني إلى مالا نهاية علاقة بين العناصر بمجرد استخدام اسم أو موقع أو تاريخ.... إلخ، هذه التجربة ليست من الخيال، ولكنها جربت في الواقع في مجلة نيوزويك التفاعلية News week Interactive بالتنسيق مع جريدة واشنطن بوست، إن كاميرا الفيديو حلت محل دفتر الملاحظات أو المسجلة التي يستخدمها الصحفي أو مذيع المذياع، إنها زيادة هائلة في الإمكانيات المتوفرة، ولكن هناك بالمقابل وأكثر من أي وقت مضى اعتماد على تقنية معقدة تتطلب

مــوارد اقتصادية كبيرة، ومــن ثم تدخل مجموعات الضغـط (اللوبيات) التي نعرف للأسف جيداً أهدافها الربحية والفكرية.

ببساطة أكبر إن إجراءات أخرى سوف تسمح لكم بالحصول على النص الصحفــي ولكن على شاشاتكم، وبالنسبة للذيــن يحبون قراءة جريدتهم المفضلة أثنــاء تناول القهوة، فإن عليهم الانتباه الشديد لفتات الكرواسان الذي يأكلونه فوق لوحة الأزرار.

لست بحاجة للاختيار: شكراً!

إن التــزاوج بين الحاسوب والتلفــاز سيصبح قريباً أذكى منك، وسوف يوفــر عليك جهد البحث بين البرامج التــي لا تحصى والألعاب والمعطيات ..... إلــخ، بتذكر عاداتك الصغيرة وبالاحتفاظ بكل ما سيمنعك بالتأكيد من كل محاولة لانفتاحك على آفاق جديدة.

سوف يُمنــع موزار عن المعجبين بمايكل جاكســون، ويمكن للعنصريين أن يختصــوا بفنان أكثر بياضاً منه، كيــف يمكن لهذه المعجزة أن تتحقق؟ ببساطة عن طريــق تذكر حاسوبك لصفاتك وسلوكك، وهكذا يوفر عليك عناء التطور ومساءلة النفس ومحاسبتها.

الوسائط المتعددة؟

تعريف تقني

الوسائــط المتعــددة هــي... الــزواج الرقمــي للصــورة والصــوت والمعلومات الــذي يسمح بالشغل عليها وتخزينهــا وتبادلها ومشاركتها مع الآخرين عبر الشبكات عالية القدرة.

تعريف شاعري

الوسائط المتعددة هي.... مثل الجنس عند المراهقين:

- كل الناس يفكرون به.
- كل واحد يعتقد أن الآخرين يمارسونه.
- كل الناس يتكلمون عنه ولكن لا أحد يمارسه فعلاً.
- القليلون الذين يمارسونه لا يصلون للتمتع به جيداً.
- يظن الجميع أنه سيكون رائعاً ذلك اليوم الذي نتعلم فيه كيف نمارسه.

المصدر: مورا كونت، أستاذ في EPFL الأسبوعية (إيبدو) 30 حزيران 1994م.

إن البائعين من كل الأصناف سوف يتدخلون في قدرتك على الشراء دون، أن يتعرضوا لخطر سحق أقدامهم عندما تغلق الباب في وجوههم. إن الميغابايت اللامتناهية تحت تصرفهم سوف تكشف لهم كل رغباتك الأكثر سرية، وحاجاتك الأقل إلحاحاً، ولا يبقى عليك سوى أن تقول: شكراً بانتظار الكشف الذي لن يتأخر بالوصول إليك عن نفس الطريق.

إضافة لذلك فإن انتشار الإعلانات المبوبة، والوصول لسوق الأشياء المستعملة سوف يكون سهلاً بالتأكيد.

سيكفيك أن تستخدم لوحة الأزرار لكتابة اسم الشيء الذي تبحث عنه والشركة المنتجة وسنة الإنتاج والسعر المرغوب به لترى لائحة كاملة بالمنتج على شاشة التلفاز.

وإذا حصـل وأصبحـت عاطلاً عـن العمل، فبإمكانـك البقاء في بيتك لاختيـار الوظيفـة التـي تحلم بهـا بينما يسخن فـرن الموجـات الصغيرة الكرواسان الذي كان يجب عليك سابقاً الحصول عليه عند إنسان آخر في أمكنة منسية كانت تدعى مخابز.

إن استخدام شبكات المعلومات الواسعة في التعليم سوف يتطور في مجال المدارس، وكونوا متأكدين بأن خطوات تعليمية عملاقة تنتظركم بفضل لمسة صحية للوحة أزرار عقيمة تغنيكم عن وخم مصافحة الأستاذ، أو الجراثيم الضارة التي يمكن أن تنتقل من الفم المبتسم لمُدرسة بلحمها ودمها.

مستقبل الرشاد

بإمكاننا متابعة التسلية بالوعود الخرافية التي مفادها في معظم الأحيان الوصول إلى تحسين التقنيات المهم بالتأكيد، ولكنه تقدم لا يطال أبداً معنى وهدف النشاط الإنساني، والدليل التقليدي على هذه الفكرة هو الاستعمال الحربـي للاختراعات، فأجدادنا القدماء عندما اكتشفوا أول الأدوات على شـكل عظم أو عصا أو قرن وعل، اكتشفوا كذلك ـ حسب ادعاء المتشائمين ـ الهراوة والمطرقة والدبوس، فأينشتاين لم يُرد القنبلة الذرية، ولم يرغب غراهام بِل بالتنصت على المكالمات الهاتفية بين المواطنين.

مـع الثورة التي نشهدها في عالم الإعلام تبـدو هذه الحالة أكثر جلاء مـن أي وقت مضى، إن التقنيات الحديثة الأكثر عنفاً لا يمكنها أن تؤثر إلا في العقول الموجودة، ولكنها لا يمكنها استبدالها، فالأثر المضخم الناتج عن كابـلات الألياف البصرية والترقيم لـن يظهر إلا على المحتويات الموجودة

سابقاً، وهذه الظاهرة تأكدت في عدة مناسبات. كلنا يتذكر الآمال التي وضعت في وسائل الإعلام المسموعة المرئية ثم في الحاسوب لتطوير التعليم، والحالة هكذا لا يمكننا إلا أن نسجل إخفاقاً أو على الأقل الحدود الصارخة لهذه الأدوات في مواجهة مشكلات المجتمع المحورية: الاندماج والإقصاء، والمنافسة الشرسة، وهيمنة الاقتصاد.... إلخ.

إن الاختراعات الأكثر جنوناً ليست لها أي قدرة على التغيير ما لم تطرح التوجهات الفلسفية والسياسية للمجتمع للنقاش، إننا نعبر الأطلسي خلال عدة ساعات اليوم لنذهب إلى نيويورك، ولكنهم دائماً نفس الأشخاص الذين يذهبون، و يقومون بفعاليات أكثر ارتباطاً بأسعار الدولار من ارتباطها بالتقريب بين الشعوب، فنحن ننزل في فنادق نمطية متشابهة سواء كانت في هونغ كونغ أو في نيروبي، ونزدرد طعاماً محايداً على كل خطوط العرض أثناء الرحلة، وبدل أن نراقب السماء فإننا نغلق ستارة النافذة لنشاهد فلماً من نوعية رديئة، وما زال معظم الرجال والنساء يسيرون على طرق ترابية بحثاً عن قليل من الماء والأمان.

أما فيروس نقص المناعة المكتسب فقد استفاد من حركات الهجرة للانتشار بسرعة أكبر، هذه التنقلات التي لا علاقة لها البتة بروعة اكتشاف آفاق جديدة من خلال السفر، استمعنا منذ عدة سنوات لمحاضرة ألقاها اختصاصي بعلم الاجتماع ماركسي التوجه وساذج جداً حاول من خلالها بيان أن التقنيات التي نملكها ستمكننا من ري الصحراء في وقت قريب، ومنذ ذلك الوقت تطورت الثقافة إلى حد أكبر من توقع المحاضر، ولكن تصحر الساحل الغربي لأفريقيا زاد أكثر.

التقليب يقتل هواة الرائي!

في نطاق الرائي ولدت ظاهرة التقليب في السبعينات مع ظهور جهاز التحكم عن بعد، أما المذياع فأصيب بهذه الظاهرة في منتصف الثمانينات مع وصول اختيار البرامج المسبق القابل للتخزين.

من المسؤول: الكبل أم الأقمار الصناعية؟

وازدادت حدة الظاهرة بظهور المحطات التلفازية العديدة الواصلة عن طريق الكابلات أو أطباق المستقبلات التي تعرض العديد من البرامج، في الوقت الحالي يمكنكم التقاط أكثر من مئة محطة راءٍ ومذياع عن طريق طبق استقبال جيد.

وهكذا يجد المشاهد نفسه في وجه بحر من المحطات، وأمام أنبوب الأشعة المهبطية يبدأ يشعر بالقلق يزداد شيئاً فشيئاً من عدم قدرته على القيام بالاختيار الصحيح، ويصبح الرائي وسيلة اتصال إعلامية بديلة مع العالم الخارجي، وعندها يبدأ المشاهد ببناء محطته الخاصة، فهو يحاول أن يبني برنامجه بخلط أشياء متنوعة، لأن كل شيء أصبح ممكناً اليوم، ويدخل فيما يمكن أن ندعوه «الرائي الافتراضي» لا شيء يبدو حقيقاً بعد الآن ...... فالرائي أصبح معيناً لا ينضب من الصور حيث يستطيع كل إنسان أن يجد ما يشابه شيئاً ذا معنى، وأحياناً يتجاوز الرائي الافتراضي واقع المشاهد المُقَلِب فيصبح أكثر حقيقة رغم عدم وجوده.

التقليب ومشاهدي الرائي

إن التقليب إضافة إلى صنع مُقَلبين يؤثر كذلك على محترفي الإعلام، ويجعل كل معطيات إحصائيات المشاهدة غير موضوعية. فمثلاً كان أعلى رقم للمشاهدين للمحطة TF1 في عام 1993م أثناء عرض مباراة كرة القدم بين مرسيليا وميلانو، ولكن رغم وجود آلات إحصاء المشاهدين المعقدة، كيف يمكننا التأكد من صحة الأرقام المقدمة لنا.

ففي استطلاع للرأي أجري في فرنسا لصالح محطات الكبل (Paris TV cable) هدفه معرفة ما يشاهد المشاهد كل ربع ساعة تبين أن تفوق المحطة الفرنسية الأولى (TF1) ونجاح المحطة الفرنسية الثانية France 2 منقوصان، فالاتجاه واضح، والمحطات المختصة بمواضيع مُعينة تأخذ جزءاً من مشاهدي المحطات الرائدة، فالتقليب موجود دون شك.

رائي المستقبل: أقوى ألف مرة من رائي اليوم

إن مؤلفي الكتاب لا يملكون الكرة الزجاجية الشفافة التي تسمح لهما بالكشف عن المستقبل، إنهما يملكان ككل واحد منكم، قراءنا الأعزاء، قدرة على الملاحظة الطبيعة، وجرعة من الحس النقدي، ولقد تصفحا آلاف الصفحات من الوثائق، والسؤال المطروح هو: ما شكل رائي المستقبل؟

علينا ببساطة أن نستنتج الإجابة من رائي اليوم، ومن هنا يمكننا البدء: خذوا أي عنصر من عناصر الواقع اليوم، وكبروه بقدر الإمكانيات الحديثة المتاحة، وبإمكانكم تنبؤ المستقبل إلى حد كبير كما لو كنتم مطلعين عليه، لنرى ذلك!

إنكم مذهلون الآن من رداءة المسلسلات الجاهزة؟ ومن الآن فصاعداً فإن عليكم أن تتجرعوا ليس مسلسلاً أو مسلسلين تافهين ولكن عشرين و مئة وألفاً، فيالحظنا!

أنتم الآن فزعون من العنف في الأفلام وألعاب الفيديو والكليب المخصصة للشباب؟ فلا تشكُوا، ولن تخسروا شيئاً بالانتظار، فأبناؤنا سيكون بإمكانهم مشاهدة مجموعة أكبر بكثير من الألعاب الحربية التي تتطلب مشاركة اللاعب، سيكون بإمكانهم أن يُقتلوا بواقعية شديدة قد تصل إلى الحقيقة، وستبدو الجراح وكأنها حقيقية، ومن يدري ربما تنقل لنا تقنيات الحاسوب رائحة الدم، و ربما الإحساس بالألم!

إن التعصب الوطني الأحمق الذي يَسِمُ الرياضة المنقولة بوسائل الإعلام يثير اشمئزازكم اليوم؟ ولكن غداً سيكون بإمكانكم بضغطة على زر أن تذيقوا حكم المباراة الويل، أو ببساطة أكبر أن تشتروا له نظارات عن طريق محطة من محطات البيع التلفازية!

كل شيء قابل للشراء في هذا العالم المنحط، و خاصة في الغرب! فمع الزيادة الهائلة للعرض، والدفع للاستهلاك، وضرائب أجهزة إزالة التشفير، والتسعيرات المدفوعة على الدقيقة..... إلخ، سوف تصلكم كشوف الحساب دون تأخير، واطمئنوا فسيكون بإمكانكم قريباً أن تدفعوا المال بالضغط على رمز ad hoc، وضمن المستقبل المنظور سوف يُسحب المبلغ من حسابك حتى دون أن تشعر بذلك، إلا إذا كنت غير قادر على وفاء الدين (فالتطور لن يصل إلى الكرم).

إنــك تعيش اليوم حياة متواضعة شحيحــة ليس لها معنى، ولكنك رغم ذلك واحد من «القلة السعداء» الذين يستهلكون وحدهم بقدر ما يستهلكه 99% مــن الجنســ البشري من مــوارد الأرض؟ فلا تخف أبــداً، إن تقنية جديدة تعني استبعاداً جديداً، فغداً لن تكون حياتك خاصة بعد الآن، ولكن مليئة بالحظ! (إياك أن تتخلى عن وظيفتك، و إلا......).

ســوف تفقد بالتدريج الصلة مع أطفالك المتسمرين دائماً أمام التلفاز أو منضــدة ألعــاب الفيديو؟ لا توجــد مشكلة، فمستقبــلاً سيصبح التلفاز ولعبــة الفيديو جهازاً واحداً، وبفضل عرضــ مضاعف عشر مرات، فإنك لــن تسمح لنفســك بتحطيم قلب ملاكك الغالي بمنعه مــن التمتع بأنظمة MEGADEHBILL أو HYPERFLAHUTE التي تلقاها من أصدقائه كهدايا.

إننــا في نهاية القرن العشرين نحيا بالنيابة أكثر فأكثر، فوهم الصورة يستبــدل الحقيقة، والأحاسيســ العابرة تحل محل التأمــل العميق، ويحل الضجيــج محــل الهدوء... إلــخ، ليست مشكلــةً (No problem)، فسوف تبــث محطة ما (مدفوعــة، فلا بد مما ليس منه بــد) برامج سكوت أثناء الدعايات التي تنشرها الشركات التي تدعم هذه المحطة.

إلا إذا كنت أنت من سيصنع تلفاز الغد.....

هــل هذا هو قدرنا؟ هذا يعني أننا نسينــا أن الجنس البشري قد وهبه الله القدرة على الفرار من كل توقعات المتنبئين بالمستقبل و الإستراتيجيات التجارية: عن طريق الحرية.

حريـة أن نقول: لا، لا نقولها للتقدم والعلـم ولكن للسباق المحموم نحو أيام تمجـد التجزئة الضائعة، كل الاختراعات تدعـو للتفاؤل، ولكن يجب أن نحسن إخراجها، هل نريد دائماً المزيد؟ ألسنا نحبذ الإضافات المفيدة لحياتنـا؟ قليـلاً من الروح غـير المُسَعَرَة، ومن الحياة غـير المدعومة، هل هـذا كثير نطلبه؟ ولكن لابد من فعله، وطالمـا يوهم المشرفون على التلفاز النـاس بأنهم يعبرون عن رغبات المشاهديـن، فإننا لن نحصل إلا على ما نستحـق، سواء كان ذلك بالأبيض والأسـود أو بالوسائط المتعددة، و سواء كان بالصـورة ثنائية أو ثلاثية الأبعـاد، وبالنقاء العالي للصورة أو بدونه. وطالمـا أننا لا نستطيع التواصل بـدون لوحة تحكم وفأر، فإن المعالج الأكثر عبقريـة سيبقـى عاجزاً عن خلـق تواصل لا يعدو كونه تجـاري جشع، من وجهة النظر هذه، فإن المحطات الحكومية المُدانة بتعجل من قبل عبدة إله التلفـاز وعجل الدعاية الذهبي سوف يكون لهـا مستقبل في عالم الغد، إن تلفاز المستقبل بالنسبة لنا وربما لكم ـ وإلا لما كنتم قرأتم كتابنـا ـ هو تلفاز الاحترام والحقيقـة غير المُقَنَّعة، والذي لا يُشرى عنـد الطلب كالغانيات. وبعبـارة مختصرة نريد محطـات وليس بنات هـوى، إن التنبؤ بعالم الغد يتطلـب فهماً لعالم اليوم في المقـام الأول، إن التحكم بتلفاز المستقبل يكون أولاً برفضـ الخنـوع الذليل لتلفاز اليـوم فلعل الفصـول القادمة من هذا الكتاب تسهم في هذا الأمر، وأنتم كذلك أيها القراء.

المبادرة

«الحضارة هي سباق بين التربية والكارثة»

هـ. ج. ويلز

الفصل الثاني

الرائي والمدرسة

ماذا يجب علينا أن نعلم شبابنا؟ وأي شباب؟ و كيف؟ ولماذا؟ وأين؟

هـذه الأسئلة الكبـيرة المتعلقة بشكل ومحتوى النظـام التعليمي هي في مركز الاهتمام لـكل تقييم للتعليم، وتزداد أهميته كلما عاشت مجتمعاتنا تغيرات سريعة وغير قابلة للتراجع.

هل المدرسة قادرة على فعل كل شيء؟

حتـى زمن قريب كان توزع المهام بين المدرسـة والعائلة واضحاً، ورغم كـون هذا التقسيم مضحكاً قليـلاً، ولكنه كان جلياً: فالتربية تعود للأبوين بينمـا يعود التعليم للمدرسين، وبما أن كل واحـد كان حريصاً على القيام بمهمته (أن ينظف أمام بيته)، كان الأطفال محميين.

ورغم ذلـك ففي نهاية الستينات أظهر استطـلاع أجري في بلجيكا أن من أصل مئة معلومة موجودة عند الأطفال في نهاية دراستهم في المدارس، حصل هؤلاء الأطفال على اثني عشر معلومة فقط عن طريق المدرسة، أما التسعة أعشار الباقية فمصدرها الأهل والأصدقاء، والشارع وقليلاً الرائي حتى في ذلك الوقت.

هـذه الملاحظـة المذهلة لم تصدم كثـيراً أو قليلاً الأوسـاط السياسية والمدرسـية، كـان المربون يؤكدون أن دور المدرسـة هو التزويد «بالوسـائل»